

تفسير البحر المحيط

@ 358 @ واضحة أحد لحييها بالأرض والآخر على سور القصر وذكروا من اضطراب فرعون وفرعه وهربه ووعدده موسى بالإيمان إن عادت إلى حالها وكثرة من مات من قوم فرعون فزعاً أشياء لم تتعرض إليها الآية ولا تثبت في حديث صحيح فافهم أعلم بها ومعنى { مَّـبـِـيـنٌ } ظاهر لا تخيل فيه بل هو ثعبان حقيقة ، قال ابن عطية { وَـإِـذَـا } طرف مكان في هذا الموضع عند المبرّد من حيث كانت خيراً عن جثة والصحيح الذي عليه شيوخنا أنها طرف مكان كما قاله المبرد وهو المنسوب إلى سيبويه وقوله من حيث كانت خيراً عن جثة ليست في هذا المكان خيراً عن جثة بل خبر هي قوله { ثُعْبَانٌ } ولو قلت { فَـإِـذَـا هـيَ } لم يكن كلاماً وينبغي أن يحمل كلامه من حيث كانت خيراً عن جثة على مثل خرجت فإذا السبع على تأويل من جعلها طرف مكان وما ذكره من أن الصحيح الذي عليه الناس أنها طرف زمان هو مذهب الرّياشي ونسب أيضاً إلى سيبويه ومذهب الكوفيين أن إذا الفجائية حرف لا اسم . .

{ وَـنَزَعَ يَدَهُ فَـإِـذَـا هـيَ بـيـضـاء لـلـنـظـار } أي جذب { يَدَهُ } قيل من جيبه وهو الظاهر لقوله { وَـأَدْخَلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ } ، وقيل من كمّته و { لـلـنـظـار } أي للنظار وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرض لها للنظار إلا إذا كان بياضها عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس إليه كما يجتمع النظار للعجائب ، قال مجاهد : { بـيـضـاء } كاللبن أو أشدّ بياضاً ، وروي أنها كانت تظهر منيرة شفافاً كالشمس ثم يردّها فترجع إلى لون موسى وكان آدم عليه السلام شديد الأدمة ، وقال ابن عباس صارت نوراً ساطعاً يضيء له ما بين السماء والأرض له لمعان مثل لمعان البرق فخرّوا على وجوههم ، وقال الكلبي : بلغنا أن موسى عليه السلام قال يا فرعون ما هذه بيدي قال : هي عصا فألقاها موسى فإذا هي ثعبان ، وروي أن فرعون رأى يد موسى فقال لفرعون ما هذه فقال : يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس وما أعجب أمر هذين الخارقين أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء ، والآخر في غير نفسه وهي العصا وجمع بدينك تبدّل الذرات وتبدل الاعراض فكانا دالين على جواز الأمرين وإنيهما كلاهما ممكن الوقوع ، قال أبو محمد بن عطية : هاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة ودعا إلى إيمان بهما وخرق العادة بهما وتحديّ الناس إلى الدين بهما فإذا جعلنا التحديّ الدّعاء إلى الدين مطلقاً فيهما تحدى وإذا جعلنا التحديّ الدّعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك لأنّ المعارضة والمعجز فيها وقعا ويقال : التحديّ هو الدّعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة

فهذه نحو ثالث وعليه يكون تحدّي موسى بالآيتين جميعاً لأنّ الظاهر من أمره أنه عرضهما معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما انتهى ، وهو كلام فيه تثبيح . .

{ قَالَ الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } . وفي الشعراء { قَالَ لِلْمَلَأِ حَوِّلْهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } والجمع بينهما أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فحكى هنا قولهم وهناك قوله أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملاء فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة والدليل عليه أنهم أجابوه في قوله { أَرَجِيهِ } وكان السحر إذ ذاك في أعلى المراتب فلما رأوا انقلاب العصا ثعباناً والأدماء بيضاء وأنكروا النبوة ودافعوه عنها قصدوا ذمه بوصفه بالسحر وخطّ قدره إذ لم يمكنهم في ظهور ما ظهر على يده نسبة شيء إليه غير السحر وبالغوا في وصفه بأن قالوا : { عَلِيمٌ } أي بالغ الغاية في علم السحر وخدعه وخيالاته وفنونه وأكثر استعمال لفظ هذا إذا كان من كلام الكفار في التنقص والاستغراب كما قال { أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُتَكُمْ } ، { أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ إِلَهُهُ رَسُولاً } ، إن هذا إلا أساطير الأولين { مَا هَذَا إِلَّا لَاسٍ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } { إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ رَانَ } { إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ } يعدلون عن لفظ اسم ذلك الشيء إلى لفظ الإشارة وأكدوا نسبة السحر إليه بدخول إن واللام . .

{ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَهَذَا تَأْمُرُونَ } استشعرت نفوسهم ما صار إليه أمرهم